

قرسايل

VERSAILLES

أخذ الانسان الحروف ، والانعام ، والألوان ، والاحجار ليعبر عن افكار عقله وعواطف قلبه . فنشأ عن ذلك فنُّ الكتابة وفنُّ الموسيقى وفنُّ التصوير وفنُّ الهندسة . وكل فنٍّ من هذه الفنون يعدُّ مظهرًا من مظاهر العقل البشري ، وشكلاً من الاشكال التي تجلي بها في خلال الاجيال والمصور ؛ فنبغ الكتاب البارعون ، والموسيقيون المطربون ، والمصورون الحاذقون ، والنقاشون الصانعون . وكانت درجة نبوغهم بنسبة حذقهم في استعمال المادة الأولية - من الفاظٍ وانعامٍ وألوانٍ وأحجار - في إبراز موائد أفكارهم وبنات فرائضهم

ان البصير المتأمل يقرأ تاريخ الفكر البشري تارة مدوّناً في كتاب ، وطوراً موقعاً في لحن ، وحيناً ممثلاً في رسم ، وآونة منقوشاً في بناء ، حسبما كتبه القوم بحروف أو نغم أو لون أو حجر

وما اهرام مصر ، وبعليك الشام ، وحدائق بابل ، واكروبول آثينا ، وكابيتول رومة ، واوان كسرى ، والخورنق والسدير ، وبرج ايفل ، وجسر بروكلين الا صفحات كبيرة من ذلك الكتاب العظيم المدوّن فيه تاريخ البشر القديم والحديث بحروف من حجارة وحديد . فنقرأ فيها عادات القوم وأخلاقهم وأميالهم وأطوارهم كما نقرأها في أقوال بنتاؤور وهوميرس وفرجيل وامرى القيس وغيرهم ؛ أو كما نسمعها في نغمات

الموقعين ونراها في ألوان المصوّرين منذ القِدَم حتى اليوم

*
*
*

من أجل فصول هذا التاريخ المكتوب بالحجر المنحوت قصر فرساييل الشهير . واذا كانت عظمة المنشيء تجلي في ما ينشئ ، وابتها الواضع تظهر في ما يضع ، فاننا نصف هذا القصر بأبلغ وصف اذا قلنا أنه أثر من آثار لويس الرابع عشر الكبير الذي ازدهرت العلوم والمعارف والآداب والفنون والصنائع في عصره ازدهاراً قلما عرفتُهُ من قبل ومن بعد ، حتى أُطلق عليه اسم « الملك - الشمس » وعلى عصره اسم « العصر الذهبي » وهذا القصر قائم في البلدة المعروفة باسمها ، وهي واقعة على مسافة ثمانية عشر كيلومتراً من باريس جنوباً بغرب ، وقد ورد ذكرها لأول مرة في التاريخ في النصف الاول من القرن الحادي عشر . ولم تكن في بداية عهدها سوى مزرعة قائمة في ظهرائي العاصمة ، يقصدها ملوك فرنسا - وأخصهم هنري الرابع ولويس الثالث عشر - للصيد والقنص في غابتها ، الى ان شاء لويس الرابع عشر ان يجعلها مقرّاً ملكياً له ، فتبارى رجال الفنون والصنائع حتى أقاموا فيها ذلك الصرح الشاهق ، فقام تحفّ به العظمة والجلال ، ويكفهُ الذوق والجمال ، مثل كل ماتمّ على عهد هذا الملك المجيد من الاعمال . وقد بدأ العمل في بناء القصر سنة ١٦٦١ ؛ وظلّ البنّاءون والرسامون والمصوّرون يعملون فيه مدة احدى وعشرين سنة متوالية ، وكان الملك يطّلع على كل الرسوم والمقاييس ويراقب بنفسه تنفيذها . ويبتدىء تاريخ بلدة فرساييل في الحقيقة من ذلك العهد .

لأن الملك امر ان تقام حول قصره منازل لضباط بلاطه ورجال حاشيته .
وأخذ الأمراء يتسابقون لتشييد القصور لهم حتى يكونوا على مقربة من
سيدهم ومولاهم . فأتسع نطاق البلدة وزاد عمارها . ولم يسمح لأحد ان
يزيد بناء داره عن دور واحد . وشدَّ عن هذه القاعدة قصر كلانبي
(Clagny) الذي أرادَه الملك مظاهياً لقصره رونقاً وجمالاً ، وأُعدَّ
لسكنى « مدام ده مونتسپان » ؛ على انه هُجر فيما بعد وهدم بأمر الملك
سنة ١٧٦٩

وظلت البلدة في عمار متواصل على عهد لويس الخامس عشر . وفي
٢٢ فبراير (شباط) سنة ١٧٨٧ عُقدت فيها جمعية الاعيان ، فكانت بداية
الثورة الفرنسية الكبرى ، لأن هذه الجمعية قررت تقسيم البلاد الى
مقاطعاتٍ تديرها مجالس محلية . وهذا أشبه شئ باللامركزية التي يطلبها
العثمانيون اليوم

وجاءت سنة ١٨٨٩ فكانت فرسايل ميداناً لحوادث خطيرة يطول
تفصيلها لأنها صفحة كبيرة من تاريخ الثورة . ففي ٥ مايو من تلك السنة
كان انعقاد الجمعية العمومية في فرسايل ؛ وفي ٢٠ يونيو اجتمع فيها مندوبو
الأمة وأقسموا ألا يتفرقوا قبل ان يسنوا للبلاد نظاماً دستورياً تسير
عليه ؛ وفي ٥ اكتوبر هجم شعب باريس على فرسايل ، ودخلوا القصر
عنوةً ، وعادوا ثاني يوم بالملك والملكة أسيرين الى باريس . وظلت المدينة
في هدوءٍ وسكينة بعد انتقال مقرّ الحكم منها حتى سنة ١٨١٤ اذ احتلها
جيش المتحالفين المهاجمين فرنسا ، وقد أحلَّ بها البروسيات في السنة

التالية الخراب والدمار . ولكن الملك لويس فيليب أعاد لقرسايل سنة ١٨٣٧ رونقها وبهاءها بإقامة متحفٍ فيها جامع لكل آثار فرنسا المحيطة ؛ على انه أبي ان يسكنها كما أبي ذلك ايضاً نابوليون الثالث بعد تبوئهِ عرش الامبراطورية ، كأن ذكرى ما حلَّ بلويس السادس عشر ظلت تخيف الرؤوس المتوجة فلم يأمن رأس منها ان يستظلَّ سماء ذلك المكان

وفي الحرب السبعينية احتلت جيوش بروسيا مدينة قرسايل ، وظلَّ معسكرهم العام فيها من ١٨ سبتمبر سنة ١٨٧٠ الى ٧ مارس سنة ١٨٧١ . وفي القصر الذي بناه لويس الرابع عشر ملك فرنسا الاكبر ، نودي بغليوم الاول ملك بروسيا امبراطوراً على المانيا

وبعد جلاء الجيش الألماني عن أرض فرنسا قامت في البلاد حرب أهلية ، فتألفت حكومة لمقاومة الثورة وجعلت مركزها قرسايل وفي ٥ مايو سنة ١٨٨٩ أقيمت في قرسايل احتفالات باهرة بمناسبة التذكار المئوي للثورة الفرنسية الكبرى . وفي ١٨ اكتوبر سنة ١٨٩٦ استقبلت حكومة فرنسا امبراطور و امبراطورة روسيا استقبالا رسمياً

* *

أما القصر القائم في مدينة قرسايل والمعروف باسمها فهو من أنخم آثار فرنسا واجملها . فهو نخمٌ جميلٌ بنفسه ، نخمٌ جميلٌ بما جرى فيه من الحوادث ، نخمٌ جميلٌ بما يضم الآن من الآثار النفيسة وطرف الفنون والصنائع التي يندر أن يوجد لها مثيل

وفي الجزء الأوسط من القصر قاعة السلام ، وقاعة الحرب وقاعة ديانا ، إلهة الصيد ، وقاعة ابولون ، وغيرها كثير ، وهناك أيضاً حجر الملك وفيها سرير به وهو أشبه شيء بعرش للملك لا يسري للنوم . وفي المؤخر قاعة المرآتي الشهيرة وطولها ٧٢ متراً زانها المصور لبرون برسوم بديعة الصنع

والى جاتي باحة الرخام الكبرى ينسبط جناحا القصر ، كل جناح على طول ١٢٠ متراً . وكان الأيسر منها خاصاً بسكنى ماري انطوانت التي قيدت من تلك المقاصير الفخمة الى ساحة العذاب إبان الثورة المشهورة . ولا تزال الى اليوم حجرتها الخاصة كما تركتها في ذلك العهد . وكان الجزء الاسفل مسكناً لولي العهد . اما الجناح الأيمن فكانت فيه مخادع الملك الخاصة . وفيها نافذة محجوبة يطل منها الملك على باحة الرخام الكبرى فيرى ولا يرى

وبعد ان حوّل الملك لويس فيليب القصر الى متحف في سنة ١٨٣٧ جعل من الجناح الايمن معرضاً لرسوم الحوادث والوقائع العسكرية ومن الجناح الأيسر معرضاً لصور ورسوم وتقوش تتعلق بتاريخ فرنسا وآثارها المجيدة

وكان في طرف الجناح الأيسر المصلّى وهو آية في جمال الهندسة ورونق الزخرفة ، وفي طرف الجناح الأيمن الملعب الذي اتخذته المجلس الوطني مكاناً لاجتماعه من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٨٧٥ ثم تحوّل الى مجتمع لمجلس الشيوخ الى سنة ١٨٧٩ . وفي سنة ١٨٧٥ أعدت الحكومة في

الجزء الاوسط مكاناً فسيحاً لمجلس نواب الأمة وهو اليوم مجتمع المجلسين « النواب والشيوخ » عند انعقادهما معاً كاجتماعهما في اواسط الشهر الماضي لانتخاب رئيس الجمهورية ، كما رأى القارئ ذلك مفصلاً تفصيلاً في صدر هذا الجزء

وفي جنبات القصر وفسحاته وحدائقه تماثيل عديدة من الرخام او البرونز لمشاهير رجال التاريخ الفرنسي يتوسطها في الباحة الكبرى تماثيل باني القصر لويس الرابع عشر ممتطياً جواده

ومن ذكر فرسايل فقد ذكر قصرى التريانون الكبير والصغير المتصلة حدائقهما بحدائق القصر الأكبر . وقد بُني التريانون بأمر من لويس السادس عشر وأهداه الى الملكة ماري انطوانت

اما حدائق فرسايل ، فعند وصفها يقف القلم واجماً واللسان عيباً . أهي جنة الله في أرضه ؟ أم هي احدى الجنان التى ورد ذكرها في اقصيص « ألف ليلة وليلة » ؟ فسماؤها وارضاها ، وهوائها وماؤها ، واشجارها وغياضها ، وأطيبارها وأزهارها فتنة العقول والعيون ، وآية من آيات الجمال والابداع

وبعد هذا — وما هو الأيسر من كثير — ألا يصح القول بان مثل هذه الآثار صفحات حية من توارىخ الأمم تقرأ فيها آيات مجدها ، واسفار عظمتها

